تجليات الفكر في قصيدة المدح عند ابن الرومي

الباحث نجم عبود ديوان
الأستاذ الدكتور ماجد عبد الحميد الكعبي
قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة البصرة

المستخلص

تتناول هذه الدراسة تجليات الفكر في قصيدة المدح عند ابن الرومي. وتسعى للإجابة على السؤال المحوري التالي: ما هي المظاهر البارزة للفكر في قصائد المديح عند ابن الرومي؟ وتنطلق من فرضية مؤداها أنّ قصائد المديح لدى الشاعر ضُمِّنتْ أبرز مظاهر الفكر وقد تجلت بالمديح الهجائي والملامح النقدية. فالبحث يسلط الضوء على جانبين أساسيين من مظاهر الفكر في قصيدة المدح الأول: المديح الهجائي، والملامح النقدية في قصيدة المدح. والدراسة تهدف إلى التركيز على "المديح الهجائي"، وكيف جسَّد ابن الرومي نوعًا من النقد واللوم إلى جانب المديح في قصائده. ثانياً: الملامح النقدية في قصيدة المدح، والتي انعكست فيها رؤية الشاعر الخاصة لهذا الفن. واتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي والمنهج التاريخي للكشف عن مظاهر الصناعة الفنية والفكرية في قصيدة المدح عند ابن الرومي.

الكلمات المفتاحية: المدح، الفكر، الصناعة، المديح الهجائي، الملامح النقدية.

تاريخ الاستلام: ٣٠ /٢٠٢٤/٠٦ **تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠٨/٠٧**

Manifestations of Thought in Ibn al-Rumi's Ode of Praise

Res.Najem Abood Diwan
Prof.Dr. Majid Abdul Hamid Al-Kaabi
Departmen of Arabic Language / College of Arts / University of Basrah

Abstract

This study investigates the manifestations of thought in the odes of praise by Ibn al-Rumi. It seeks to answer the central question: What are the prominent features of thought in Ibn al-Rumi's praise poems? The research is grounded in the hypothesis that the poet's odes encompass significant intellectual dimensions, particularly evident in both satirical praise and critical elements.

The study highlights two key aspects of thought within these odes: first, the use of satirical praise, and second, the critical characteristics that permeate the poems. It emphasizes how Ibn al-Rumi weaves criticism and reproach into his expressions of praise, creating a complex interplay between admiration and critique. Furthermore, it explores the critical aspects of his odes, reflecting the poet's unique perspective on this literary genre. To achieve these objectives, the researcher employs a descriptive-analytical methodology alongside a historical approach to uncover the artistic and intellectual features embedded in Ibn al-Rumi's odes of praise.

Keywords: praise, thought, craftsmanship, satirical praise, critical features.

Received: 30/06/2024 **Accepted: 07/08/2024**

المقدمة

اشتهر ابن الرومي بين شعراء العربية بأنّه "شاعر الفكر". فقد وصفه النقاد قديمًا بقدرته الفذة على اختراع المعاني وتوليدها بشكل مبتكر. وأشادوا كذلك بعمق تفكيره وقوة استدلاله وقدرته التحليلية. وليس بمستغرب ذلك، فقد كان رجلاً ذكيًّا ومتعدد المعارف، حيث كان عالمًا واسع الاطلاع، درس الفلسفة والمنطق وتمرّس في علم الجدل والكلام. ونتيجة لذلك، تأثر شعره بأساليب وأفكار ومعاني هذه العلوم المختلفة، فظهرت آثارها واضحة في إبداعه الشعري. فقد كان قادرًا على صياغة أفكار عميقة ومعانٍ مبتكرة بطريقة فنية بارعة، متجاوزًا بذلك حدود التعبير التقليدي في الشعر [١]. وكان يعكس في إبداعه حالة الصراع الدائم بين الواقع والفكر؛ فشعره ينم عن تجربة إنسانية معقدة، تتسم بتنوع الأبعاد وتداخل المستويات، فمن ناحية، كان الشاعر يتوق إلى إرضاء الممدوحين والحصول على تقديرهم وعطاياهم، فكان يبذل جهدًا كبيرًا في استنفاد أساليب المدح وأشكال القصيدة، إلا أنّه لم ينل ما كان يطمح إليه. وفي سبيل ذلك، استخدم معاني نادرة وتعبيرات مبالغ فيها، تعكس حالة الصراع الداخلي التي عاشها. ومن ناحية أخرى، تجلت في شعره تناقضات مفاهيمية متعددة، كالعدل والظلم، والثراء والفقر، والرضا والغضب، والمدح والهجاء، والسلام والعداوة. وهذا التضارب ربما انعكس على حالة اليأس والأمل التي سادت شعره [٢]. لقد تجلت في قصائد المدح عند ابن الرومي صوراً فكرية متنوعة. بيد أنّنا نريد أنْ نسلط الضوء على أبرز تجليات الفكر في قصيدة المدح، والتي شكلت مظهرا من مظاهر الصناعة في القصيدة المذكورة. فإنّ دقة فكره وما استوعبه من سمات الثقافة والفلسفة قد انعكس بوضوح على صناعة القصيدة لديه، وشكّل ملمحاً بارزاً من ملامحها، ولعل الأهم في الأمر أنّ التجليات المشار إليها قد كشفت بوضوح وعي الشاعر العميق بصناعته [٣]. وقد تجلى هذا بالمديح الهجائي، وبالملامح النقدية التي ظهرت في قصيدة المدح.

أ- المديح الهجائي: كان ابن الرومي يمتلك أسلوبًا فريدًا في قصائد المدح، يمكن تسميته بما اصطلح عليه الدكتور ماجد عبد الحميد الكعبي بـ "المديح الهجائي". ففي قصائده، كان الشاعر يبذل جهدًا كبيرًا لإنشاء نصوص تجمع بين معاني المدح والهجاء في قالب واحد، مما يضفي على قصيدته طبيعة ثنائية المعنى. فمن ناحية، يصوغ الشاعر أبياتَ مدحٍ مفعمة بالمبالغة والجاذبية، وذلك في محاولة منه لإرضاء الممدوحين وكسب إعجابهم وجوائزهم. ولكن من ناحية أخرى، تتسلل إلى ثنايا هذا المدح إشارات وعبارات هجائية، تكشف عن انتقادات دقيقة للممدوح وتفضح جوانبه السلبية. وبالتالي، تتحول قصيدة ابن الرومي إلى نص ذي وجهين متناقضين، يترك للمتلقي حرية اختيار السمة البارزة فيه، سواء أكان المديح أم الهجاء. وذلك اعتمادًا على سياق الحال والمقام الذي قيلت فيه القصيدة، فضلاً عن دراسة سيرة الشاعر ونفسيته [٤]. وهذا الأسلوب المبتكر، الذي يمزج بين طرفي النقيض في نص واحد، يعكس براعة الشاعر الفنية وعمق تجربته الإنسانية المعقدة. وعلى الرغم من اشتهار أبي الطيب المتنبي بهذا النوع من الفن، إلا أنّه لم يكن هو من ابتكر هذا اللون الشعري الذي يجمع بين المديح والهجاء. فالفضل في ذلك يعود في الحقيقة إلى ابن الرومي، الذي تجاهله الدارسون القدماء والمعاصرون على حد سواء، ولم يشر أحد إليه كمبتكر لهذا الفن الشعري المتميز. وبدلاً من ذلك راحوا يبحثون عن جذوره في شعر المتنبي، لاسيما

في قصائده الكافوريات. ومع ذلك، فإنّ شروط هذا اللون الشعري كانت متوفرة بوضوح في شخصية الشاعر، سواء على الصعيد النفسي أو الفني. فقد كان متمكنًا من توجيه معانيه الوجهة التي يريدها بتأنٍ وتروٍ، وكما كان لديه استعداد لأنْ ينظر ويتأمل ويصقل ويعيد في نظمه ومعانيه. وهذه الأناة التي يتسم بها جعلته قادرًا على اختيار المعاني الملغمة التي تمكّن المتأمل من تشاطرها من جانبين متناقضين [٥]. وقبل الحديث عن المديح الهجائي، أود أنْ أشير الى أمر مهم يتعلق بطبيعة النصوص التي سيتم ذكرها، وهي أنّ قصائد ابن الرومي وخاصة الطوال امتازت بتعدد الموضوعات داخل القصيدة الواحدة. بيد أنّ ما أريد أنْ أذكره، أنّ قسما من قصائد ابن الرومي وردت تحت عنوان العتاب، ولكنّها اشتملت على أبيات في المدح لا يمكن تجاهلها. وقد امتازت تلك القصائد باشتمالها على المديح الهجائي بنسبة كبيرة. إنّ اشتمال القصيدة على أبيات في المدح يمنحنا فرصة دراستها طالما كان الهم الأساس لهذه الدراسة منصباً على استجلاء ملامح صناعة الفكر في شعر المدح عند ابن الرومي ولا يضر تصنيف البعض لها ضمن فن العتاب. إذ لا شك في أنّ واحدة من أبرز إضافات ابن الرومي لفن صناعة الشعر العربي هو هذا التداخل في أغراض وأجناس القصيدة العربية وكسر الحدود الفاصلة بينها. لقد اتخذ المديح الهجائي صوراً وأشكالاً متنوعة في قصائد ابن الرومي، ومن أبرزها:

المدح المقترن بالانتقاد والتوبيخ :وفيه يمزج الشاعر بين أبيات المدح المبالغ فيها وبين إشارات وعبارات هجائية تنتقد الممدوح وتكشف عيوبه. ويستخدم عدة أساليب وطرق لتحقيق هذا الربط بين المدح والهجاء، منها: المزج بين المدح والانتقاد، أو بين المدح والتوبيخ، أو بين المدح والتأنيب، أو بين المدح والتوجيه، أو بين المدح والاستنكار. فهذه بعض الأساليب والطرق التي قد يستخدمها الشاعر في المدح المقترن بالانتقاد والتوبيخ، حيث يجمع بين الإشادة بالممدوح ونقده وتوجيهه إلى السلوك الأفضل. لقد ترعرع ابن الرومي في بيئة بغداد العباسية، تلك البيئة التي عرفت بتعدد تياراتها الفكرية وتناقضاتها. وهذا التباين والتنوع عم جميع جوانب الحياة [٦]. ويبدو أنّ الجمع بين المديح والهجاء كان نتيجة لتلك المتناقضات التي عاشها الشاعر في حياته. ومن الأسباب الأخرى التي يمكن أنْ تقف وراء ظهور المديح الهجائي، السعي للحصول على المنافع والمكاسب، والمنافسة الشعرية بين الشعراء، والتعبير عن المواقف السياسية والاجتماعية للشاعر، والدفاع عن الذات والانتصار للكرامة [٧]. ومن شواهد هذا الشكل قوله، في محمد بن عبد الله بن طاهر [٨]: (الطويل)

وما الحَسَبُ الموروثُ لا درَّدَرُّه بمحتَسَبٍ إلا بآخرَ مُكتسبْ

إذا العودُ لي يُثمروإن كان شُعبةً من المُثمراتِ اعتدَّه الناسُ في الحطبْ

و أنت لعَمْري شُعبةٌ من ذوي العلا فلا ترضَ أن تُعتدَّ من أوضع الشُّعَبْ

وللمجد قومٌ ساوروهُ بأنفسٍ كرامٍ ولم يرضَوْا بأمٍّ ولاَ بأبْ

رأيتك قد عوَّلتَ بي في مدائحي على نائِل الآباء في سالف الحِقبْ

أتجعلُ نَيْلاً نالهُ ابنُ محلِّمٍ ثوابَ مديحي فيك هذا هو العجبْ

فما رِفدُ عبد الله والقَرْمِ طاهرٍ سواي بقاضٍ عنك حقي الذي وجبْ

فلا تَتَّكِلْ إلا على ما فعلتَهُ ولا تحسبنَّ المجدَ يُورَثُ بالنسبْ

فليس يسودُ المرءُ إلا بنفسه وإن عَدَّ آباءً كراماً ذوي حسبْ

هذه الأبيات تندرج تحت شكل المدح المقترن بالانتقاد والتوبيخ. فهي تصف علاقة الشاعر المعقدة مع الممدوح. فهو يوبخه ويقول له أنّ الحسب الموروث وحده لا يكفي لرفعة الإنسان، بل لا بد من الكسب والجهد الشخصي المكتسب. وينبهه على أنّه جزء من أصحاب العلا، فلا ينبغي أنْ يُعد من أوضع الناس. والمجد لا يُورث بالنسب والأصل فحسب، بل يحتاج إلى الكفاح والنفس الكريمة. وينتقد اعتماده على مجد الآباء في مدائحه، ويطالبه بالاعتماد على ما حققه بنفسه. ويشكو من عدم الجزاء المناسب مقابل مدائحه، رغم أنّها لا تقل عما نال غيره. وقال في إسماعيل بن بلبل [٩]:(المتقارب)

فما لعطاياكَ أضحت حِمىً عليَّ وأضحت لغيري نِهابا

أظنُّك خُبِّرتَ أنّي امرؤٌ أبَرُّ الرجالَ بشعري احتسابا

ولو غيرُك السائِمي ما أرى لشعَّبتُ للظن فيه شِعابا

فقلتُ غبيٌّ كسا جهلُهُ نواظرَهُ دون شمسي ضبابا

ورانَ على قلبه رَيْنُهُ فليس يُريه صوابي صوابا

أذلك أو قلتُ كان امرَأً رأى الجودَ ذنباً عظيماً فتابا

هفا هفوةً بالندى ثم قال أنبتُ إلى الله فيمن أنابا

أذلك أو قلتُ بل لم يزلْ أخا البخل إلا عِداتٍ كِذابا

يُريغُ ثناءً بلا نائل يُمنّي أمانيَّ تُلْفَى سرابا

إلى كل ذاك تميلُ النفو س أخطأ ظنٌّ بها أم أصابا

تظهر هذه الأبيات موقف الشاعر المتناقض تجاه الممدوح. فهو يمزج المدح بالانتقاد والتوبيخ، فالشاعر يشكو من أنّ عطايا الممدوح صارت ممنوعة أو محروسة عليه، بينما أصبحت عطاياه متاحة لغيره بشكل غير محدود. وهذا يدل على أنّه قصر في إنفاقه على الشاعر، على الرغم من أنّ الشاعر يبر الرجال بشعره واحتسابه. وينتقد الممدوح ويزدريه، ويشير له من طرف خفي بأنّه غبي كسا جهله نواظره ضبابًا. كما يرى أنّه لا يرى صوابه ولا يتوب على بخله، بل ما زال أخا البخل. ويحاول تبرير موقفه منه، فيقول إنّه لو كان غيره لشعب للظن فيه شعابًا. وفي سخرية منه، يتساءل عما إذا كان الممدوح رأى الجود ذنبًا فتاب عنه. وينتقده على إيهامه بالثناء بدون إعطاء نائل. كما يوبخه على تمنيه أماني تُلفى سرابًا، مشيرًا إلى أنّ النفوس تميل إلى ذلك سواء أخطأ الظن فيه أم أصاب. إذن، تجمع هذه الأبيات بين المدح والشكوى والنقد والتوبيخ والتبرير والسخرية. ومن الشواهد الأخرى قوله في ابن فراس[١٠]:(الوافر)

أتلتمسُ الشفاءَ لديك حالي فتُمنَى منك بالداء العُضالِ

مِطالٌ منك قد أضنى اصطباري وظلمٌ منك قد أفنى احتيالي

وكان مطالُ مدحي بالمساعي هداك اللَّه أحسن من مطالي

فماطِلْني الجزاءَ تؤُلْ بمدحي من الأمدِ البعيدِ إلى مآل

حلفتُ لقد حكمتَ بغيرِ عدلٍ أمنتَ و أنت تشغلني اشتغالي

لحيتَ ليَ الزمانَ و أنت عُطلٌ وضافرت الزمان و أنت والي

وكيف ولِمْ أمنتَ عليك عتبي وسَيْلي بالأو ابد و انثيالي

أكنتَ ظننت سهوي عن حقوقي أم استيقنتَ جبني و انخذالي

أم اســـتعهدتَ حلمـــي واغتفـــاري أم اســـتكفيتَ حزمـــي فـــي حَـــوالي

كـــلا الحســـبين يوجـــب أن يُضـــاهَى فســـــاجِلني فإنـــــك ذو سِـــــجال

في هذه الأبيات، نلمح المدح المقترن بالانتقاد والتوبيخ، فالشاعر يلتمس الشفاء من الممدوح فيجازى منه بداء عضال. وينتقده على طول تسويفه ومطاله وعدم الوفاء له حتى أرهقه وأفنى حيله. وينتقد تأخره في إعطائه الجزاء المستحق على مدائحه. وحلف على أنّه قد حكم عليه بغير عدل، بينما هو في منصب المؤتمن والمسؤول. ويشكو من امهاله واشغاله له، بينما هو في منصب الوالي والمتصرف. ويقول له: كنت تساندي على الزمان عندما لم تكن واليا، وحين أصبحت واليا وقفت مع الزمان ضدي. ويتساءل عن سبب عدم عتابه له، مع أنّه كان في حال سيل في عتابه له. ويتحداه بالمحاسبة والمجادلة، قائلاً له "ساجلني فإنك ذو سجال". فكان عليك أنْ تعاملني بما يضاهي هذا الذي تحسبه فيّ من خلق.

٢- **المدح المشوب بالتخويف والتحذير:**وفيه يقدم الشاعر مديحًا للممدوح، لكنه يضمنه تحذيرات وتلويحات تهديدية تحمل معنى الهجاء والوعيد. ويستخدم الشاعر عدة أساليب وطرق لتحقيق هذا التضمين، منها: المزج بين المدح والتهديد، أو بين المدح والوعيد، أو بين المدح والتخويف، أو بين المدح والتحذير، أو بين المدح والوعظ التحذيري. وهذه بعض الأساليب والطرق التي قد يستخدمها الشاعر في المدح المشوب بالتخويف والتحذير للممدوح، حيث يجمع بين الثناء والمديح من جهة، والتهديد والتحذير من جهة أخرى. ويبدو أنّ ابن الرومي قد أدرك أنّ المديح الذي ينتجه لم يعد ذا فاعلية في نيل حظوة الشاعر لدى أصحاب السلطة والجاه. وفي المقابل، كان يرى أنّ شعراء آخرين، قد نالوا رضا الممدوحين وأموالهم من خلال أشعار المديح التقليدية. لذلك، أخذ يشكو ويعاتب في بعض الأحيان، بينما يهدد في أحيان أخرى. ولكن الهجاء الصريح كان يسبب له مشاكل لم يكن مهيئًا لها نفسيًا واجتماعيًا، ولا تخدم غرضه التكسبي. وبناءً على ذلك، لجأ الشاعر إلى ابتكار طريقة جديدة تجمع بين المديح والهجاء، باعتبارها نوعًا من ممارسة الخداع والمخاتلة. فقد رأى في هذا الأسلوب المبتكر سبيلاً للتعبير عن آرائه ومعاتبته للممدوحين دون أنْ يواجه المشاكل التي ينطوي عليها الهجاء المباشر. وبهذا، استطاع ابن الرومي أنْ يتجاوز إشكالية عدم فاعلية المديح التقليدي في إيصال رسالته الشعرية، من خلال ابتكار هذا اللون المميز الذي يجمع بين طرفي النقيض – المديح والهجاء - في قالب واحد[١١]. وهذا ما أضفى على إبداعه الشعري سمة التفرد والتميز. ومن الشواهد الأخرى قوله، في القاسم بن عبيد الله[١٢]:(الخفيف)

يا جواداً هجا مَديحيه بالحر مان ما اسطاع لا تكن هجّاءَ

إنَّ بخس الثواب إن دام ظلماً قَلَب المدحَ ذاتَ يومٍ هجاءَ

ليس من قائِل المديح ولكنْ من أناسٍ تدعوهم الغوغاء

أو من المنكرين وعْظَ المحقِّيـ نَ وإن لم يُلَقَّبوا شعراءَ

تكشف هذه الأبيات عن موقف الشاعر النقدي والتوبيخي تجاه الممدوح، فهو يوبخه، ويخاطبه ويصفه بالكرم ويدعوه ألّا يقابل المدح بالهجاء، بعدم إعطاء الجوائز والهدايا لمن يمدحه. ويعتبر هذا الفعل بخساً لهم. ويرى أنّ استمرار هذا الظلم في المدح سيؤدي إلى قلب المدح إلى هجاء، أي أنّ المدح سيتحول إلى هجاء في النهاية. وهذا ناتج عن "بخس الثواب" الذي يُقدَّم للشاعر. إذن، تعكس هذه الأبيات موقف الشاعر المنتقد للممدوح، حيث يوبخه على بخله وظلمه وسوء معاملته للناس. فالشاعر اعتمد أسلوب الوعظ التحذيري مع الشاعر. وقوله في إسماعيل بن بلبل[١٣]: (البسيط)

مالي حُرِمتُ وحُظَّ الناسُ كلُّهُمُ ممن ذنوبيَ خيرٌمن وسائلِهِ

أُعيذُ عدلك أن يُلفَى بحضرته خصمي وحقّيَ مغلوبٌ بباطلِهِ

ما حَقُّ ميدانِ مجدٍ أنتَ صاحبُهُ إجراءُ ناهقِهِ قُدّامَ صاهِلِهِ

سائلْ بيَ الشعرَإني من مَصاعبهِ فإن أبيتَ فهبني من أَزامِلِهِ

ُعيذُ مُزنَك أن يشقَى ببارقهِ شَيْمي وتسعدُ أقوامٌ بو ابِلِهِ

فالشاعر يوبخ الممدوح على عدم اعتنائه بمدحه وعدم الوفاء بجزائه. فهو يمزج بين المدح والهجاء. ويفخر بنفسه بأنّه حرم من العطاء رغم أنّ ذنوبه خير من وسائله. وهذا تلميح هجائي للممدوح بأنّه أقل من الشاعر رغم ذنوبه. ويمدح عدله ولكنه يهجوه بأنّه يغلب الحق بالباطل. ويذكره بأنّه صاحب ميدان المجد، ولا ينبغي له أنْ يجري كلامه الباطل قدام صوته الحق. ويطلب منه أنْ يسأله عن شعره، فإنّه من مصاعبه أي فحوله. والشاعر يستعيذ بمطر الممدوح من أنْ يشقى ببرقه، بينما يسعد آخرون بمطره. وهنا نجد أنّ الشاعر يمزج المدح بالتحذير. ومن شواهد ذلك قوله في ابن فراس[١٤]:(الوافر)

مديحاً إنْ تُثبه يكن مديحاً من الحُلل المحبَّرة الغوالي

وإن تظلمْه تجعلْه هجاء أشدَّ على الكريم من النبالِ

وليس بلفظةٍ لي فيك لكنْ بما للناسِ منْ قيلٍ وقالِ

يرون مدائحاً جُزيتْ بظلم فألسنُهُم أحدُّ من النصالِ

وكم شعرٍ مدحتُ به ظلوماً فصار هجاءَه لا بافتعالي

ولو أني أشاء سكتُّ عنه مجاهرةً ودبّ له اغتيالي

ولكنَّ المحقَّ له نصيرٌ من الأيام والعُقَب المتالي

وذمُّ الناس مجلوبٌ رخيصٌ لأيسرِ علَّةٍ والحمدُ غالي

سأدعو اللَّه مبتهلاً إليه عليك مع الدعاة على إلالِ

تظهر هذه الأبيات موقف الشاعر النقدي والتوبيخي تجاه الممدوح، فهو يذكر أنّ المديح إنْ أثبت للممدوح بإعطاء الجائزة، فهو مدح كريم. أما إذا ظلمه ولم يعطه شيئاً، فإنّه يكون هجاءً شديدًا عليه. ويؤكد أنّه ليس بكلمات منه في الممدوح، ولكن بما يقوله الناس عنه. فالناس يرون مدائح جُزيت بظلم، فألسنتهم تكون أحد من السهام ضد الممدوح. ويقول الشاعر أنّه لو شاء لسكت عن المجاهرة بالقدح للممدوح مكتفيا بالقدح الذي يدب خفية، أي بكلام الاخرين وأقاويلهم. ويؤكد أنّ المحق له ناصر من الأيام ينصره بعاقبتها. ويرى أنّ ذم الناس للممدوح مجلوب رخيص لأقل علة، بينما الثناء والحمد عليه غالٍ. وفي النهاية، يدعو الله مبتهلاً عليه مع الدعاة على الذل والانكسار. إذن، تعكس هذه الأبيات موقف الشاعر تجاه الممدوح، مشوبا بالتحذير له من سوء سمعته وسلوكه.

٣- المدح المقترن بالتشكي والتشكيك: وفي هذا القسم يبني الشاعر قصيدة المدح على أساس التشكيك في نوايا الممدوح أو التشكي من سلوكه وتصرفاته. ويستخدم الشاعر عدة أساليب وطرق لتحقيق هذا الربط، منها: المزج بين المدح والشكوى، أو بين المدح والتذمر، أو بين المدح والتساؤل، أو بين المدح والتشكيك. وهذه بعض الأساليب والطرق التي قد يستخدمها الشاعر في المدح المقترن بالتشكي والتشكيك، حيث يمزج بين الإشادة بالممدوح ونقده وتساؤله عن تصرفاته. وعند استقراء شعر ابن الرومي، يتبين أنّ ثمة صراعًا خفيًّا قد بدأ ينتشر بين الشاعر وممدوحيه. فقد كانت العلاقة التي تجمعه بهم تنطوي على الارتياب والخديعة وعدم الوفاء. ويبدو أنّ سوء الظن قد غلب على طبيعة الشاعر نتيجة لما كان يراه من تقلبات الدنيا وتحولاتها المستمرة. فلم يعد هناك شيء يمكن أنْ يستقر على حال واحد، وكانت الأمور دائمة التغير والانتقال. وبالتالي، لماذا لا تكون القصيدة نفسها متحولة في معانيها؟ لكن هذا التحول لا يتم إلا بمهارة وإتقان في إخفاء المعاني الهجائية تحت ثوب المديح المغرِق[١٥]. ومن شواهد هذا النوع قوله، في أبي القاسم التوزي الشطرنجي[١٦]: (الخفيف)

يا أخي هَبْكَ لم تهبْ ليَ من سَعـ يك حظاً كسائر البُخلاءِ

أَفَلا كان منك ردٌّ جميلٌ فيه للنّفس راحةٌ من عَناءِ

أجَزاءُ الصَّديق إيطاؤُهُ العِشـ ـوة حتَى يظلّ كالعشْواءِ

تاركاً سعْيَه اتِّكالاً على سَعْـ ـيكَ دون الصِّحاب والشُّفعاءِ

كالَّذي غرَّه السَّراب بما خيـ ـيَل حتَّى هراق ما في السِّقاءِ

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو هـ لدهْري قَطَعْتَ مَتْن الرَّجاءِ

بِكرُحاجاتِ من يعُدُّك للشِد دَةِ طوراً وتارةً للرَّخاءِ

نمتَ عنها وما لمثلك عُذْرٌ عند ذي نُهيةٍ على الإغفاءِ

قَسَماً لو سألتُ أخرى عَوانا لتَنمَّرْتَ لي مَعَ الأعداءِ

تظهر هذه الأبيات شكوى الشاعر من بخل الممدوح عليه وقطع رجائه في مساعدته، مع توبيخه على ذلك وحثه على كرم الضيافة. فالشاعر يذكر أنّ الممدوح لم يهبه من سعيه حظًا كما فعل مع البخلاء. ويتساءل أفلا كان منه رد جميل فيه راحة للنفس من العناء؟ ويتساءل ويقول: هل واجبات الصديق إطعام الضيف حتى يظل كالعشواء؟ ويلومه على تركه سعيه، واتكاله على سعيه دون طلب المساعدة من الصحاب والشفعاء. والشاعر يشبهه بمن غرّه السراب وأهدر ما في السقاء. ويوبخه على قطع رجاء من يعده للشدة والرخاء. ويستنكر نومه عن حاجات من يعتمد عليه، وهو لا عذر له في ذلك. ويقسم بأنّه لو سأل أحدًا آخر للمساعدة، لتنمر الممدوح عليه مع الأعداء. إذن، تعكس هذه الأبيات شكوى الشاعر من بخل الممدوح وتقصيره في واجبات الصداقة، مع توبيخه واستنكاره وتحذيره من العواقب. وقال في إبراهيم بن المدبر [١٧]: (الكامل)

مـــاذا تقـــول إذا سُـــئِلْتَ مُحاســـباً والظـــالمونُ علـــى شـــفا ســـجِّين

لِـمْ نـام جـودُكَ عـن ثـوابِ مـدائحٍ جاءتـكَ مـن رجـلٍ مجـيءَ يقـين

وطفقـــتَ تُوعـــدُهُ بكـــلِّ عظيمـــةٍ لنميمـــةٍ جـــاءتْ مجـــيءَ ظَنـــين

إن التثبّــتَ والأنــاةَ علــى امــرئٍ عــدلِ القضــاءِ مــن السـداد مكـين

أيظــلُّ مــدحي فــي مقــام مبــارزٍ وتــرى هجــائي فــي مُغــاركَمــين

تكشف هذه الأبيات موقف الشاعر الناقد والمشكك في سلوك الممدوح، مع تحذيره وتوبيخه، فالشاعر يتساءل عن قول الممدوح إذا سُئل محاسبًا عن أفعاله يوم القيامة، وكان الظالمون قريبين من شفا النار. ويتساءل عن سبب غفلة سخاء الممدوح عن ثواب المدائح التي أتته من رجل يقيني. ويوبخه على أنّه طفق يُوعده بكل عظيمة بسبب نميمة جاءته مشكوك في صحتها. فالشاعر ينصح الممدوح بالتثبت والأناة على المرء فهي من عدل القضاء والسداد المكين. ويتساءل عن سبب استمرار مدحه للممدوح في موضع المبارزة، بينما يرى هجاءه في موضع الكمين. إذن، الشاعر ينتقد الممدوح، محذرًا إياه من عواقب أفعاله وحاثًا إياه على التثبت والأناة، مع المقارنة بين موقفه في المدح والهجاء. وقال[١٨]: (الكامل)

لــو أَنَّنــي مُلِكْــتُ طــردَ محبَّتــي إيــاك عــن رُوحــي وعــن جثمــاني

لَطردْتُهــا جهْــدِي فكنــتُ بــأن أرى لــك زائــراً والهجــرُفــي إمكــاني

ولــئن تركــتُ فأنــت موضــعُ رَغْبتي ولــئن هجــرتُ فأنــت مــن أشــجاني

لكــن أَســأْتَ بــيَ الإســاءة كلَّهــا فجعلــتُ هجرانيــكَ مــن إحســاني

قــبَحَ الإلــه إخــاءَ ظُلْــمٍ بيننــا أرعــاك فيــه وانــت لا ترعــاني

هيهــاتَ قــد حلفَــتْ عليَّ حزامتي إلا أبيــــعَ كرامتــــي بهــــوان

ولــئن فعلــتُ لَبعــدَ كونــك للــردى عوْنــاً علــيَّ وأنــت مــن أعــواني

فاذهــبْ إليــكَ فــإنني لا أبتغــي مَــدَداً علــيَّ لنائبــات زمــاني

ولأعقِلــنَّ عــن الغوائــل حيلتــي ولأعقلــنَّ عــن الهجــاء لســاني

تظهر هذه الأبيات موقف الشاعر الشاكي والحائر بين حبه للممدوح وإساءته له، وتصميمه على الحفاظ على كرامته رغم معاناته. فالشاعر يؤكد أنّه لو أُعطي سلطة طرد محبته للممدوح، لفعل ذلك، ولكان زائرًا له بعد الهجر. ولكن الممدوح هو موضع رغبته، وهو من أسباب شجونه. ويقرر أنّه أساء إليه كل الإساءة، فجعل هجرانه من إحسانه. كما يتبرأ من الإخاء المبني

على الظلم بينهما، فهو يرعاه فيه ولا يرعاه. ويؤكد أنّ كرامته حلفت عليه ألّا يبيعها بالهوان. ويهدد بأنّه إنْ فعل ذلك، فإنّ الممدوح سيكون عونًا عليه وهو من أعوانه. وفي النهاية، يقرر أنْ يذهب بنفسه ولا يلتمس منه مددًا على نوائب الزمان. ويعزم على أنْ يعقل عن الغوائل، وأنْ يعقل لسانه عن الهجاء الصريح. إذن، تعكس هذه الأبيات حالة الشاعر النفسية المعقدة تجاه الممدوح، بين الحب والكراهية، والشكوى والتشكي، والرغبة في الاستقلال والحكمة في التصرف. إذن، الأبيات تجمع بين المدح والهجاء، مع عناصر من الشكوى والتبرير من قبل الشاعر. وبهذه الصور المتنوعة، ينجح ابن الرومي في إنشاء قصائد متعددة الوجوه، تمزج بين المديح والهجاء بأساليب فنية بارعة، مما يترك للمتلقي حرية التأويل والترجيح. ولعل المتلقي يستطيع أنْ يلاحظ المديح الهجائي في قصائد ابن الرومي من لغة الشاعر وأسلوبه، فهي لغة تختلف عن لغة المديح المعروفة. فالمديح لا تتناسب لغته مع التهديد والتوبيخ والانتقاد والوعظ وغيرها. فهذه اللغة تترك انطباعا لدى المتلقي بأنّ هناك شيئا ما يضمره الشاعر ولم يصرح به، وإنْ حاول إلباس أبياته ثوب العتاب، بيد أنّ الموضوع لا يمكن حمله على العتاب فقط. وتجنباً للإطالة نكتفي بما ذكرناه من أمثلة في بيان المديح الهجائي على أنَّ من يستقصي ديوان الشاعر يجد نماذج أخرى من هذا النوع وخاصة في القصائد التي مدح بها أشخاصاً ثم أنقلب إلى هجائهم من أمثال أحمد بن محمد الطائي، وابن بلبل، وإبراهيم بن المدبر وغيرهم.

ب- الملامح النقدية في قصيدة المدح:ليس بمستغرب أنْ يكون الشاعر ناقدًا، فالنقد في الواقع يشكل ركناً أساسياً في هوية الشاعر وممارساته الإبداعية. فتاريخ الشعر والشعراء والنقد والنقاد، قديمًا وحديثًا، وعند مختلف الأمم، يشهد بوفرة على ارتباط الشعراء بالنقد وتوظيفهم له في تجاربهم الإبداعية. وإذا كان المألوف والمنطقي أنْ يكون النقد بالنثر، فإنّ النقد من خلال الشعر يُعد مسارًا مختلفًا ومتميزًا. ففي هذه الحالة، يواجه الشاعر الناقد تحديًا خاصًا، حيث يضطر إلى توظيف إمكاناته الشعرية لنقل وجهات نظره النقدية والفكرية. وفي هذا السياق، يُعد ابن الرومي نموذجًا بارزًا للشاعر الناقد الذي أبرز قدراته النقدية بشكل متميز من خلال إبداعه الشعري [١٩]. فقد استطاع أنْ يُعبر عن رؤاه النقدية والفكرية بصورة مركزة ومكثفة في أشعاره، مستغلاً إمكانات الشعر لطرح قضاياه وآرائه النقدية.ولم يكن ابن الرومي مجرد شاعر موهوب، بل برز أيضًا كصاحب نظرية نقدية متميزة تشهد على سعة علمه وثقافته المتنوعة، فضلاً عن دقة نظره وتحليله للأشياء. وهذا ما أشار إليه عدد من النقاد البارزين كالمرزباني والخالديان وابن رشيق وابن سناء الملك والصفدي، مما يجعلنا ننظر إليه باعتباره أحد أبرز نقاد الشعر في تراثنا العربي. ويؤكد هذا الوصف أيضًا ما تميز به من إشارته إلى مصطلحات نقدية متخصصة في مجالات الشعر والعروض والقافية، مما يدلل على عمق فهمه وتبحره في هذه الجوانب [٢٠]. وما يهمنا هنا، هو الوقوف على الملامح النقدية في قصيدة المدح باعتبارها تمثل مظهرا من مظاهر البراعة الفكرية التي امتاز بها الشاعر. فقد شكلت آراء الشاعر النقدية ملمحا لصناعة قصيدة المدح من وجهتين: الأولى، تضمين الشاعر لتلك الآراء النقدية، يشير بشكل واضح على براعته الفكرية. والثانية، ومن جانب أخر يعد توظيف الشاعر لرؤاه النقدية عبر قصيدة المدح مظهرا من مظاهر الصناعة. وسنقف على أبرز الملامح النقدية في قصائده وقد تمثلت بما يلي:

١- **أهمية الشعر ودفاعه عنه**؛كان الهدف الرئيس في نشأة النقد الشعري لدى ابن الرومي، وهو التعريف بشعره وبمكانته الشعرية لدى أولئك الذين امتدحهم ولكنهم ابتعدوا عنه. وكان هذا النقد بمثابة الدفاع عن شعره وشاعريته في مواجهة خصومه ومنتقديه وعائبي شعره. فلم يكن النقد مجرد تعليق على شعر الشاعر، بل كان وسيلة لإثبات ذاته الشاعرية والدفاع عنها أمام من انتقدوه أو تجاهلوه. وبذلك كان النقد الشعري لديه أداة لتأكيد مكانته الأدبية وقيمة إنتاجه الشعري[٢١]. ومن شواهد ذلك قوله في علي بن محمد بن العباس[٢٢]: (الكامل)

فاقبلْ مديحاً والقهُ بثوابِه أوْ لا فدعْهُ لغارمٍ غنّام

لا تَقْبلنَّ المدحَ ثم تَعُقُّهُ وتنامُ والشعراءُ غيرنيام

واحذَرْ معرَّتَهُمْ إذا دانيتهمْ فلهُمْ أشدُّ معرةِ العُرَّام

واعلم بأنهمُ إذا لم يُنصَفوا حكموا لأنفسِهم على الحكامِ

وظُلامةُ العادي عليهمْ تنقضي وعِقابُهمْ يبقى على الأيام

تحمل هذه الأبيات رسالة نقدية تحذيرية موجهة إلى الممدوح. وتحثه على التشجيع لقبول المديح والإكرام للشعراء المادحين. وتحذره من رفض المديح أو التقصير في مكافأة الشعراء. ومن إساءة معاملة الشعراء والتعرض لهم. وتؤكد على أنّ الشعراء سيطالبون بحقوقهم بأنفسهم إذا لم ينالوا العدالة. وتنبه إلى أنّ ظلمهم سيكون محدوداً بوقت معين، بينما عقابهم للممدوح سيمتد إلى أجيال قادمة. وبشكل عام، تحذر هذه الأبيات الممدوح من التقصير في حق الشعراء المادحين، مؤكدة على أهمية احترامهم وتقدير مكانتهم. لقد انتقل ابن الرومي من موقفه الشخصي كشاعر إلى تقمص دور الناقد البارع الذي اكتسب خبرة وإلمامًا بأبعاد الأشياء وبواطنها. ومن ثَمَّ، فإنه يرى أنّ على الشاعر أنْ يصدر هذه الآراء والتوجيهات إلى غيره من الشعراء. فالشاعر لم يكتف بتجسيد هذا الأسلوب المبتكر في قصائده الخاصة، بل سعى إلى إرساء قواعده النقدية ليكون نموذجًا يحتذى به من قبل شعراء آخرين. وبهذا، برز كشاعر متمرس وناقد بارع، قادر على تجاوز المألوف في تقديم المديح، من خلال إضفاء طابع هجائي دقيق على قصائده، وكذلك إرساء مفاهيم نقدية جديدة في هذا المجال[٢٣]. وقال يمدح المبرد[٢٤]: (الرمل)

فاستمعْ شعري فإن أحْمَدْتَهُ حين يرعى الفكرُ فيه وَيَرودُ

فاحْتَقبْ حمدي بإسْماعِكَهُ مَلكاً يملكهُ حلْمٌ وجودُ

ليَ في مَدْحيَ فيه أمَلٌ وبلاغٌ وله فيه خلودُ

عـــارضٌ أمطـــر غيـــري وَدَعَـــتْ رائـــدي منْـــهُ بُـــروقُ ورُعـــودُ

هذه الأبيات تحمل رسالة نقدية موجهة من الشاعر إلى الممدوح، فهو يطلب منه أنْ يستمع إلى شعره فإنّ استحسنه وأعجبه طلب منه أنْ يحمده بمحضر أحد ممدوحيه الآخرين وهو "صاعد بن مخلد" وزير المعتمد العباسي. فالشاعر يطلب من المبرد وهو شخصية معروفة، ولها باع في اللغة والأدب، ولذلك يلتمس منه الحكم لأنّه صاحب علم ومعرفة. ونلاحظ هنا أنّ الشاعر يلتمس حكما نقديا من شخص مختص وليس جاهلا بالشعر وفنونه.

٢- أسسه النقدية في النقد والناقد:وقد اعتمد ابن الرومي على أساسين في النقد والناقد: أما الأول، فالناقد المنصف هو من يتمكن من التفريق بين الشعر وشخص الشاعر، فينظر إلى الشعر بموضوعية وحياد، بعيدًا عن أي موقف أو علاقة مسبقة مع الشاعر. وهذه المهمة قد شكلت إحدى المحن التي عانى منها الشاعر، وأثرت سلبًا على شعره. فقد طالب، على سبيل المثال، الشاعر أبي العباس بن ثوابة في قصيدة طويلة، بضرورة هذا التفريق والنظر الموضوعي عند النقد الأدبي. فالشعر يجب أنْ ينظر إليه بمعزل عن شخصية الشاعر وموقفه، حتى يتحقق النقد العادل والمنصف[٢٥]. فقال[٢٦]: (البسيط)

ومســـتخفٍّ بقـــدر الشـــعر قلـــت لـــه لـــن ينفُـــق العطـــر إلا عنـــد معطـــارِ

لا تُصـــغِر الشـــعر إن أصـــغرت قائلـــهُ فإنـــه غيـــر محقـــوقٍ بإصـــغارِ

ولا يغرّنْـــك تصـــريف المُنـــيّ لـــه فتســـتخفّ بشـــأن منـــه كُبّـــارِ

أمـــا تـــرى المســـك بَيْنـــاه علـــى حجـــرٍ يُذلّـــه كـــل ذلٍّ فِهـــر عَطّـــارِ

إذ بَلَّغتـــهُ صـــروف الـــدهر غايتـــهُ فاحتـــلّ منزلـــةً مـــن رأس جبـــارِ

يـــزري علـــى الشـــعر أقـــوامٌ بحاكتـــه ومـــا عليـــه إذا أُلبســـتَهُ زاري

تتضمن هذه الأبيات رسالة نقدية مهمة تتلخص في التحذير من الاستخفاف بقدر الشعر والشعراء، فالشعر لا ينتشر إلا عند من يقدره حق قدره. والنهي عن التقليل من شأن الشعر أو الشعراء، فالشعر ليس محقوراً بمجرد تحقير قائله. والتحذير من الانخداع بظاهر النجاح الزائل للشعراء المستخفين، فهم في الحقيقة ليسوا بذي شأن. والتشبيه بالمسك الذي يذله كل عطار رغم قيمته الحقيقية، وهو ما ينطبق على الشعراء المستهانين. والتأكيد على أنّ الشعراء الحقيقيين يحتلون مكانة مرموقة رغم ما قد يصيبهم من انتكاسات. واستنكاره لمن ينتقص من قيمة الشعر ويسعى إلى إلباسه بما يشينه. إذن،

تحمل هذه الأبيات رسالة تتعلق بفلسفة القراءة الصحيحة للشعر وتقدير قيمته الفنية والاجتماعية والإعلامية على حد سواء. أما الجانب الآخر، وهو متمم ومشابه للأول، فهو رفض النقد الجزئي والانحياز إلى قراءات نقدية محدودة، كما كان شائعًا في نقدنا القديم. بدلاً من ذلك، يجب على الناقد اعتماد القراءة النقدية الشاملة والمحايدة للعمل الأدبي، والحكم عليه وفقًا لها، بصرف النظر عن طبيعة هذا الحكم واتجاهه. لقد كان هذا المبدأ أساسيًا في مذهبه في النقد، كما يتضح من طلبه من الشاعر صاعد بن مخلد أنْ يقرأ قصيدته الدالية بالكامل قراءة دقيقة وفاحصة، بعيدًا عن أي تحيز أو انتقاء جزئي [٢٧]. فالعمل الأدبي يجب أنْ ينظر إليه بشكل شامل ومتكامل، لا أنْ ينتقى منه أجزاء دون أخرى. فقال [٢٨]: (السريع)

أوَّلُ ما أسأل من حاجةٍ أن تقرأ الشعر إلى آخرِهْ

قراءةً تصدرُعن نيةٍ تُفهم قلب المرء عن ناظرِهْ

ثم كفاني بالذي تَرْتَئِي في جَيّد الشعروفي شاعرِهْ

وما أرَى التقصيريُخشَى على فعلك بل يُخشى على شاكرِهْ

هذه الأبيات تتضمن رؤية نقدية للقراءة والتعامل مع النص الشعري، وتؤكد على أهمية قراءة الشعر بتمعن وإمعان حتى النهاية. وتشدد على ضرورة أنْ تصدر هذه القراءة عن نية وفهم عميق. والاكتفاء بالحكم على "جَيّد الشعر" وعلى "شاعرِهْ"، دون الانخراط في نقد تفصيلي. والثقة في المتلقي وعدم الخشية من تقصيره، بل يُخشَى على من لا يستطيع الاستفادة من القراءة.

٣- **مقومات صناعة الشعر:**كان ابن الرومي، وكذلك النقاد القدامى، ينظرون إلى الشعر باعتباره "بنية دقيقة مركبة معقدة"، تتطلب من الشاعر جهداً كبيراً ومعاناة متواصلة. وليس مجرد موهبة فحسب. وأدركوا حقيقة تفاوت المستوى الفني للشاعر الواحد، حتى داخل القصيدة الواحدة. فالشعر ليس على درجة واحدة من الإتقان والجودة. وكانوا ينظرون إلى القصيدة باعتبارها "أجزاء متفاوتة متناسقة متآزرة"، بحيث لكل جزء وظيفته في إطار الغرض الشعري الكلي. وأنّ عملية الإبداع الشعري لا تنتهي عند مرحلة "الولادة"، بل تحتاج إلى "التنقية والتصفية والاصطفاء" في مرحلة لاحقة، وهي ما اصطلح عليه بـ "التثقيف أو التنقيح أو التهذيب". لقد امتلك ابن الرومي والنقاد القدامى رؤية معمقة التصور تجاه طبيعة الشعر ومراحل إنتاجه، وجوانب التعقيد والتفاوت والتكامل التي ينطوي عليها [٢٩]. ومن شواهد ذلك قوله في القاسم [٣٠]: (مجزوء الكامل)

واعـــذرْفـــإنَّ الشِّـــعْرِيَخْـــ نَـــعُ فـــي معانيـــهِ ويَعْـــرُمْ

يحمل هذا البيت رؤية نقدية تشير إلى صعوبة المعاني الشعرية وتعقد الصياغة والنظم، مما يستدعي التسامح والعذر من جانب المتلقي. وهذه النظرة تعكس إدراك النقاد القدامى لطبيعة الإبداع الشعري وتحدياته. وقال في علي بن محمد بن العباس[٣١]: (الكامل)

ومغارمُ الشعراءِ في أشعارهم إنفاقُ أعمارٍوهجرُمنام

وجفاءُ لذَّاتٍ ورفضُ مكاسبٍ لو خُولفتْ حُرِستْ من الإعدام

يصور هذان البيتان الشاعر باعتباره مضحياً بكثير من اللذات والمكاسب الدنيوية من أجل الشعر، وهذه التضحيات ينبغي الحفاظ عليها وصيانتها كقيمة ثقافية واجتماعية. وقال في إسماعيل بن بلبل[٣٢]: (السريع)

ويـح القـوافي مـا لهـا سَفْسَـفتْ حَظِّـي كـأَنِّي كنـتُ سَفْسَـفْتُها

ألـمْ تكُـن هوجـاً فسـدَّدْتُها ألـم تكـن عوجـاً فَثَقَّفْتُهَـا

كـم كلمـاتٍ حكْـتُ أبْرادَهَـا وَسَّـطْتُها الحسْـنَ وطَرَّفْتُهَـا

تتناول هذه الأبيات قضية تدهور القوافي الشعرية، أي أبيات الشعر ومعاناة الشاعر في تقويمها وإعادة صياغتها، مع التأكيد على جهوده في هذا المجال. وقال في مدح عبيد الله بن عبد الله[٣٣]: (المنسرح)

قصـيدةٌ كرَّهـا مُثقّفُهـا عليـكَ إذ ثُقِّفـتْ علـى مَهَـلِ

أعجلـه الوقـتُ عـن رياضـتها فأقبلـتْ ريّضـاً علـى عجـلِ

ثـم استراضـتْ فجـاء مركَبُهـا مُمْتَهَـدَ الظهـرِ مُـردفَ الكَفَـلِ

لـم أحتشـمْ كرَّهـا عليـك ولا سـدَّد منهـا مواضـعَ الخلـلِ

ولـيس مثلـي ينـامُ عـن خَلَـلٍ فـي مـدح ممدوحِـه ولا زلَـلِ

والشـعر مـا كـان غيـر مُنْتَحَـلٍ يَحْـرُمُ فـي مـدح كـل مُنْتَجِـلِ

تطرح هذه الأبيات رؤية نقدية شاملة حول طبيعة القصيدة الشعرية وعملية صياغتها، وتشير إلى أنّ الشاعر المتمكن قد عانى وتكبد في تقويم وتهذيب هذه القصيدة ببطءٍ وتأنٍ. ولكنّ الضغط الزماني أجبره على الإسراع في صياغتها، فأنجزها دون كامل الرياضة والتنقيح. ثم عاد الشاعر ليستدرك ويصقل القصيدة، فجاء شكلها النهائي محكم البناء. ويؤكد أنّه أعادة صياغتها عليه، ولم يترك مواطن القصور فيها. ويؤكد أنّه لا يغفل عن إتقان المديح. وأخيراً يشير إلى أنّ الشعر الحقيقي هو ما كان ليس مصطنعاً. إذن، تقدم هذه الأبيات صورة متكاملة عن نظرة الشاعر إلى مراحل إنشاء القصيدة وسبل إتقانها، وخاصة في قصائد المديح.

٤- موقفه من الفكر وإطالة القصيدة:يتميز ابن الرومي بطول التفكير والترويّ عند إنشاء قصائده، وهذا ينطبق بشكل خاص على قصائد المديح. فهو كان يمعن النظر ويتأنّى في صياغة هذه القصائد، بدلاً من التسرّع. وقد أقر بهذا الأسلوب المتأني في إحدى قصائده الطويلة المكرّسة لمدح إبراهيم بن المدبر[٣٤]. فقال[٣٥]:(الكامل)

خـذها أبـا إسـحاقٍ صـنعةَ شـاعرٍ صـــنعٍ أطـــالَ لفكـــرهِ التمهـــيلا

وأطاعــه حــرفُ الــروي فلــم يجـئ فيـــه بمفعـــولٍ يشـــوبُ فعـــيلا

كثـرتْ معــاني المــدحِ فيــك فهيَّــأتْ للمـــــادحِ التكثيـــروالتطـــويلا

فأطلـــتُ إيفـــاءً لمجـــدك حقَّـــهُ بـل لسـتُ فيـك وإن أطلـتُ مُطـيلا

ولمَـــا جعلْتُـــك إذ أطلـــتُ كمـــوردٍ قَـــذَفٍ أُمِـــرَّرشـــاؤُه فـــأطيلا

فهذه الأبيات تتضمن رؤية نقدية للشعر والصناعة الشعرية، وتؤكد على أهمية الصياغة الفنية الدقيقة في الشعر، حيث يشير الشاعر إلى الصنعة الفنية للقصيدة. والاهتمام بالتمهل والتأني في الإبداع الشعري، وعدم التسرع. والإشارة إلى الإطالة والتفصيل في المديح كسمة فنية. والتأكيد على عدم الإسراف في الإطالة والتفصيل، رغم أهميته. وعلى ضرورة التوازن في الإطالة. إذن، تتضمن هذه الأبيات ملامح نقدية تؤكد على أهمية الجوانب الفنية في الإبداع الشعري، كالصياغة والتمهل والتوازن في الإطالة، خاصة في قصائد المديح.

٥-موقفه من استخدام القوافي:يشير ابن الرومي إلى قضية القوافي والأوزان بطريقة تكشف عن معرفته بمعايير تقييمها وارتباطها بموضوعات الشعر وطوله. فهذه القضايا النقدية الجدلية مهمة منذ القديم وحتى الآن. ويبدو من تحليل معظم نقدنا القديم أنّ الشاعر كان من القلة الذين أشاروا إلى هذه الجوانب الفنية بصورة واضحة. فقد اعترف بأنّ التعامل مع

القوافي ليس باليسير، خاصة في المواضيع التي تتطلب مزيداً من الصناعة الفنية كالمديح. ولكن الشاعر المبدع يستطيع السيطرة عليها، حتى لو كان بعضها صعب المنال[٣٦]. فقال في أبي الصقر[٣٧]: (الكامل)

كم من قوافٍ لا يُنالُ وصالُها قد أصبحت ولها إليك توصُّلُ

باتت معاولها عليك تقاتُلٌ وغدت إليك لها إليك تقتُّلُ

هذان البيتان يتناولان قضية نقدية هامة تتعلق بالقوافي في الشعر، والتأكيد على صعوبة تحقيق بعض القوافي، أي الوصول إلى الصياغة والنظم المناسب لها. وإسناد هذه الصعوبة إلى الشاعر نفسه، باعتباره المسؤول عن النظم والقوافي. والتشخيص البليغ للقوافي، مما يوحي بالجهد والصراع الذي يبذله الشاعر في سبيل إخضاعها. والتأكيد على أن هذه الصعوبة في القوافي لا تمنع الوصول إليها في النهاية. والإشارة إلى الارتباط الوثيق بين القوافي وبين أهداف الشاعر ومواضيع قصيدته. إذن، يتناول هذان البيتان قضايا نقدية هامة تتعلق بالصياغة الفنية للقوافي، وطبيعة الجهد الذي يبذله الشاعر في سبيل إتقانها، مع الإشارة إلى ارتباطها بموضوعات القصيدة وأغراضها. وقد يضطر الشاعر أحيانًا، كما كان يحدث مع ابن الرومي، إلى اللجوء إلى القوافي الأكثر سهولة، إذا ما أراد أنْ تطول قصيدته، وخاصة في قصائد المديح. وهذا الاضطرار قد يدفع الشاعر أيضًا إلى الاعتذار عن استخدام هذه القوافي والأوزان السهلة، ربما لأنّه كان يؤمن بأنّ الأوزان والقوافي في الشعر ينبغي أنْ تنبع من التناغم الداخلي بين المعنى والإيقاع والعاطفة، وليس مجرد اختيار سطحي. وهذا ما يفسر اعتذاره لعبيد الله بن عبد الله -في قصيدة المهرجان- عن استخدام هذه القوافي والأوزان السهلة، فالشاعر لا يراها مجرد خيار بل تجسيد لعلاقة عضوية داخل النص الشعري[٣٨]. فقال[٣٩]: (الخفيف)

إن تكــن ســهلةَ القــوافي فليســتْ فــي المعــاني بســهلة الوُجــدان

و ابسُـطِ العـذرَفي ارتخـاص القـوافي و اتّبِـــــاعي ســـــــهولةَ الأوزان

أيُّ وزن وأيُّ حـــــــــــــرف رويٍّ لهمـــا بالمـــديح فيـــك يـــدان

ضــاق عــن مأثُر اتــك الشــعرُ إلا فـــاعلاتن مســـتفعلن فـــاعلانِ

هذه الأبيات تتضمن رؤية نقدية متكاملة حول قضية القوافي والأوزان في الشعر، والتفرقة بين سهولة القوافي وصعوبة المعاني والمضامين الشعرية. والاعتراف باللجوء إلى القوافي السهلة واختيار الأوزان المتيسرة، مع محاولة تبرير ذلك. والتأكيد على أنّ اختيار الوزن والقافية له علاقة وثيقة بموضوع المديح. والإشارة إلى ضيق الشعر عن استيعاب كل المآثر والمدائح الممكنة في الممدوح. والتنويع في الأوزان الشعرية كوسيلة للتعبير عن هذا الضيق والتحدي. إذن، تتضمن هذه الأبيات رؤية نقدية شاملة

تتناول قضايا الجوانب الفنية للقوافي والأوزان وعلاقتها بالمضمون والغرض الشعري، مع محاولة تبرير التوجه نحو الأسلوب الأيسر. وتجنباً للإطالة نكتفي بما ذكرناه من أمثلة في بيان الملامح النقدية في قصيدة المدح على انَّ من يطالع ديوان الشاعر يجد نماذج أخرى من هذا النوع[٤٠].

نتائج البحث

١- كشف البحث أن أبرز تجليات الفكر في قصيدة المدح لدى ابن الرومي التي شكلت أحد مظاهر الصناعة الشعرية عنده. تمثلت في المديح الهجائي والملامح النقدية الظاهرة في قصيدة المدح، والتي كشفت بوضوح عن وعي الشاعر العميق بصناعته الشعرية.

٢- أشارت الدراسة إلى واحدة من أبرز إضافات ابن الرومي لفن صناعة الشعر العربي هو التداخل في أغراض وأجناس القصيدة العربية وكسر الحدود الفاصلة بينها.

٢- أظهرت الدراسة أسلوب ابن الرومي الفريد في قصائد المدح، فقد كان يبذل جهدًا كبيرًا لإنشاء نصوص تجمع بين معاني المدح والهجاء، مما أضفى على بعض قصائده طبيعة ثنائية المعنى. وتجلى هذا "بالمدح الهجائي" في صوره المتنوعة، وأبرزها: المدح المقترن بالانتقاد والتوبيخ، والمدح المشوب بالتخويف والتحذير، والمدح المقترن بالتشكي والتشكيك.

٣- وأظهرت الدراسة أن ابن الرومي جسَّد في قصائد المدح نوعًا من النقد واللوم إلى جانب عناصر المديح والثناء، مما يعكس رؤيته النقدية لفن المديح. كما برزت في إبداعاته ملامح فكرية ونقدية تعكس تصوره الخاص لقصيدة المدح وما ينبغي أن تتضمنه.

٤- كشفت الدراسة أن الملامح النقدية في قصيدة المدح عند ابن الرومي تُمثل مظهرًا من مظاهر براعته الفكرية. كما أن توظيف هذه الرؤى النقدية في قصيدة المدح يُعد مظهرًا من مظاهر صناعته الشعرية. وتجلت أبرز الملامح النقدية في مواقفه تجاه أهمية الشعر ودفاعه عنه، وأسسه النقدية في النقد والناقد، ومقومات صناعة الشعر، وموقفه من الفكر وإطالة القصيدة، فضلاً عن موقفه من استخدام القوافي

الهوامش

١) ينظر: مظاهر الفكر في شعر ابن الرومي،ص٨١.

٢) ينظر: ابن الرومي مظاهر الصراع الداخلي في شعره، ص ٣٧٦.

٣) ينظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ص٢٠٤.

٤) ينظر: المديح الهجائي بين ابن الرومي وأبي الطيب المتنبي: أ. د. ماجد عبد الحميد الكعبي، مجلة ذي قار للفنون، المجلد ٣٦، العدد١، ٢٠٢١، ص٣٤٧-٣٤٨.

٥) ينظر: المصدر نفسه: ص٣٥٤.

٦) ينظر: الحركة النقدية حول شعري البحتري وابن الرومي، ماجد عبد الحميد الكعبي، مجلة جامعة بابل/ العلوم الإنسانية/ المجلد ١٨، العدد (٢)، ٢٠١٠، ص ٤٤٨

٧) ينظر: الذات والآخر في شعر ابن الرومي "دراسة تحليلية": ص١٩٩

٨) ديوانه: ١ / ١٥٠-١٥١.

٩) ديوانه: ١ / ٢٠٠.

١٠) ديوانه: ٥ /١٩٧٨.

١١) ينظر: المديح الهجائي بين ابن الرومي وأبي الطيب المتنبي: ص٣٦١.

١٢) ديوانه: ١ / ٩١-٩٢.

١٣) ديوانه: ٥ /١٩٩٣-١٩٩٤.

١٤) ديوانه: ٥ /١٩٨٢.

١٥) ينظر: المديح الهجائي بين ابن الرومي وأبي الطيب المتنبي: ص٣٥٦.

)١٦ ديوانه: ١ / ٦٥.

١٧) ديوانه: ٦ / ٢٥٧٤-٢٥٧٥.

١٨) ديوانه: ٦ / ٢٥٧٣.

١٩) ينظر: ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: يوسف حسين بكار، مجلة علامات في النقد، ج ٥ – م٢ - ربيع الأول ١٤١٣ هـ - سبتمبر ١٩٩٢م،ص١٢٤ -١٢٥.

٢٠) ينظر: ابن الرومي ناقدا: الدكتور، جاسر خليل سالم أبو صفية، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٢, الرسالة ١٨٥، ٢٠٠٢م، ص ٢٦.

٢١) ينظر: ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: ص١٢٨.

٢٢) ديوانه: ٦ / ٢٣٩٢ – ٢٣٩٣.

٢٣) ينظر: المديح الهجائي بين ابن الرومي وأبي الطيب المتنبي: ص ٣٥٩.

٢٤) ديوانه: ٢ / ٧٥٦.

٢٥) ينظر: ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: ص١٣٦.

٢٦) ديوانه: ٣ / ١٠٢٧-١٠٢٨.

٢٧) ينظر: ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: ص١٣٧.

٢٨) ديوانه: ٣ / ٩٠٨.

٢٩) ينظر: ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: ص١٣٣.

٣٠) ديوانه: ٦ / ٢٣٤١.

٣١) ديوانه: ٦ / ٢٣٩٢.

٣٢) ديوانه: ١ / ٣٥٩.

٣٣) ديوانه: ٥ / ١٩٥١-١٩٥٢.

٣٤) ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: ص١٢٩.

٣٥) ديوانه: ٥ / ١٩٧٦.

٣٦) ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: ص١٣٠.

٣٧) ديوانه: ٥ / ٢٠٧٥

٣٨) ينظر: ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: ص١٣١.

٣٩) ديوانه: ٦ / ٢٥٠٨.

٤٠) ينظر ديوانه: ١/١٣٤، ١/ ٣٩١، ٢/ ٧٩١، ٣/ ٩٥٩، ٣/ ١٠٢٧، ٤/ ١٣٨٧، ٤/ ١٦١١، ٥/ ١٩٧٦، ٥/ ٢٠٦٥.

المصادر والمراجع

- ابن الرومي مظاهر الصراع الداخلي في شعره، الدكتورة نعيمة بوزيدي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٤-٢٠١٥م.
- ديوان ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريح؛ تحقيق الدكتور حسين نصار، ط٣ منقحة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، مركز تحقيق التراث، (١٤٢٤هـ ،٢٠٠٣م).
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (ت ١٤٢٦هـ)، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثانية عشرة، (د.ت).

المجلات العلمية

_ابن الرومي ناقدا: الدكتور، جاسر خليل سالم أبو صفية، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٢, الرسالة ١٨٥، ٢٠٠٢م.

- ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر: يوسف حسين بكار، مجلة علامات في النقد، ج ٥ – م٢ - ربيع الأول ١٤١٣ هـ - سبتمبر ١٩٩٢م.
- الحركة النقدية حول شعري البحتري وابن الرومي، ماجد عبد الحميد الكعبي، مجلة جامعة بابل/ العلوم الإنسانية/ المجلد ١٨، العدد (٢)، ٢٠١٠م.
- الذات والآخر في شعر ابن الرومي "دراسة تحليلية"، الدكتور عبد الغفار عبد العزيز عبد الغفار عطية، مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود – العدد السادس والثلاثون – الإصدار الثالث – أغسطس ٢٠٢٣م.
- المديح الهجائي بين ابن الرومي وأبي الطيب المتنبي: أ. د. ماجد عبد الحميد الكعبي، مجلة ذي قار للفنون، المجلد ٣٦، العدد١، ٢٠٢١م.
- مظاهر الفكر في شعر ابن الرومي: مرضية آباد، مجلة اللغة العربية وآدابها السنة التاسعة، العدد الثالث، خريف ١٤٣٤- ١٤٣٥هـ.